

TROUBADOURS

ET POETES HISPANO - MAURESQUES

ETIEMBLE

التروبادور وشعراء الأندلس

حينما تحدث دى بيللى Du Bellay عن شعر التروبادور قال: « ما أحقره ! دعنى من كل هذه التوابل التى تقسد علينا مذاق لغتنا ، والتى ليس وراءها نفع إلا أن تكون شاهداً على جهالتنا . » وهكذا أصدر حكمه على الشعر البروفانسى فى استهانة وجور نجدهما عند نقاد القرن السابع عشر نحو هذا الشعر . وبعد أمد طويل ، فى نهاية القرن التاسع عشر ، رُدّ على أناشيد الجسنت chansons de geste وقصص المائدة المستديرة وشعر التروبادور اعتبارها فى صورة مضطربة مختلطة ، وذلك تحت تأثير عامل الخوف الشديد الذى دفع الطوائف المرشدة إلى الأسف على القرون الوسطى والترحم على أيامها الجميلة . فأصبح الشعر البروفانسى فجأة شعراً فرنسياً له حكمته وقيمته . وشرع العلماء الأجانب — تحت تأثير الدافع الوطنى قبل العلمى — يكشفون عن ماض حافل لهذا الشعر ، فيرجحون تارة أنه من أصل يونانى رومانى ، ويقطعون تارة بأنه من أصل سلتى . ومع ذلك فالمسرفون فى العصبية القومية لم يقبلوا الاعتراف بهذا النسب . والأمر عندهم أن شعر التروبادور بموضوعه وأسلوبه ظهر فجأة ظهور العجزة دون مقدمات ، فكانه زهرة بغير ساق ولا جذر . (وكان الألمان — الذين اهتموا لبرتواند دى بورن Bertrand de Born أو بير فيدال Peire Vidal — يريدون أن يثبتوا العنصر القوطى . وهذا للأسف أثر من آثار العصبية القومية) . وبالرغم من كل هذا فالمفكرون المتمازون منذ نصف قرن يرفضون تلك الأحكام من أسامها . فأوجين باريت Eugène Baret وآخرون بعده يؤكدون أن التأثير العربى وحده هو الذى يستطيع أن يفسر لنا السر فى ظهور هذا النوع من الشعر ، وهم فى ذلك يتفقون مع رأى كثير من النقاد الايطاليين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وخاصة باربيرى Barberi الذى كتب مجنوناً عن ازدهار الشعر العربى عند الاسبان والبروفانسيين .

ولا يستطيع اليوم أى أوربي مثقف أن ينكر ما يقال من أنه فى الوقت الذى حمل فيه الغزو الجرماني إلى الغرب الاضطراب والوحشية كان تأسيس الخلافة القرطبية هو الذى سمح لأوربا بأن تحيا فيها الثقافة مرة ثانية . وكان من اثار ذلك أن أصبح حوض البحر الأبيض مركزاً للعلوم الرياضية والطب والفلك والكيمياء والفلسفة . ولقد قال بحق ألكسندر كوريه Alexandre Koyré : « إن العرب كانوا أساتذة الغرب اللاتينى ومثقفيه، ولم يكونوا مجرد واسطة بينه وبين الشرق اليونانى كما شاع القول واستفاض . فلولا ابن سينا ولولا ابن رشد لكان ظهور القديس توما أمراً مستحيلاً ، وفى اتمامه مرتين بمشايعته لتفكير أحد (الوثنيين) دليل على ذلك . وأى مصير كان ينتظر المخطوطة الوحيدة من كتاب أفليدس لولا وجود العرب الذين جعلوها حتى القرن السادس عشر مرجعاً فى قرطبة يرحل إليه الراحلون ؟ ولم يكن هناك من علم إلا العلم الذى فى الكتب العربية ، كما أعلن ذلك روجر بيكون Roger Bacon . ولما كانت كل الثقافات الأدبية والعلمية فى القرون الوسطى المسيحية موسومة بخاتم الاسلام وعلامته ، فيكون عجيباً جداً لذلك أن ينبثق الشعر البروفانسى فى أرض فرنسية فجاء وينبت من تلقاء نفسه .

لقد نشر الأستاذ روبرت بريفو Robert Briffault منذ عشرين عاماً مؤلفاً ضخماً عن أصول العواطف والمؤسسات الانسانية . وهو اليوم يتحفتنا بكتاب كبير مركز فيه البراهين على ما نميل إليه من أن شعر التروبادور إنما هو وليد الشعر العربى . قال المؤلف : « قبل أن يترجم شاعر من شعراء التروبادور بأول أناشيد فى بروفانس بنحو قرن من الزمان كان أدباء الأندلس قد تحمسوا لنوع جديد من الشعر اعتبر ظهوره بينهم ثورة أدبية » . لقد مجدوا فيه جمال المحبوب كما تغنوا بجوره وقسوته وبذلة العاشق وكآبته . ومن ناحية أخرى هناك فى قصور الوزراء والخلفاء ، كانت النساء الجميلات - وفيهن أنشدت أشعار - قد شغفن بجمع المخطوطات ، وأولين شعراءهن الحماية والرعاية ، وكن أيضاً ينظمن الشعر (هكذا كانت ولادة ابنة المستكفى ، وهكذا كانت عائشة بنت أحمد). أما عن الموضوعات التى أحدث فيها هذا الشعر تجديداً فهى أغاني الصباح L'aubade وأناشيد الربيع . وأما ماحدث من تجديد فى الشكل فهو أنه حول القصيدة القديمة الطويلة بأبياتها التقليدية إلى مقطوعات تتألف كل مقطوعة من أربعة

أجزاء، يشترك الثلاثة الأول منها في قافية متشابهة، ويتخذ الجزء الرابع - وهو ما يسمى بالسمط - قافية جديدة تتكرر في آخر كل مقطوعة. ومضوا أبعد من هذا فأحدثوا تغييراً في لغة الشعر لتتلاءم مع أنواعهم الجديدة. يشهد بذلك ديوان ابن قزمان الذي التزم اللغة العامية فيه، وتشهد بقية الآثار التي استخدمت فن الزجل. وفي تلك العصور كانت الصلات الوثيقة قائمة بين الولايات الأسبانية (مسيحية وإسلامية) وبين ما نسميه بالعالم البروفانسي أي بروفانس وقطلونية وإمارة تولوز. وكان أمراء هذه الولاية الأخيرة يعيشون في دائرة النفوذ الأسباني أكثر من خضوعهم للملك الفرنجية. ولم يكن هنالك تعصب ديني يحول بين أهل بروفانس وبين أهل قرطبة. وأكثر ملوك النصرانية إخلاصاً لدينهم كانوا لا يدعون حين يحاربون الأمراء المسلمين إلا أنهم يريدون توحيد المُلُكين تحت تاجهم، أي الملك النصراني والأماة الإسلامية، وهما ما كان يعبر عنهما وقتئذ (بالمُلتين). وكذلك كان الشأن في حركة الاسترداد *riconquista* فالفرسان العرب كثيراً ما ساهموا في تلك الحركة التي أظهرت فيما بعد على أنها النصر المبين للدين الحق على جموع الكافرين. وكان أهل بروفانس أقل من غيرهم عصبية للوطن والدين، فكان أفرادهم في القرن الثاني عشر يحترمون أهل قرطبة المعاصرين لهم ويتعاملون معهم.

وأول شاعر معروف من شعراء التروبادور هو جيوم صاحب مدينة بواتيه الذي ولد سنة ١٠٧١، فكان تبعاً لذلك معاصراً لابن قزمان. وكان جيوم هذا مشهوراً يتحدث عنه كل الناس. وكان فوق ذلك حليفاً لأمرأ ليون، وقد أمدهم بمعونته أحياناً. فهل يعقل ألا يتأثر رجل كهذا بأسبانيا المسلمة وهو الذي أوغل فيها حتى بلغ غرناطة وقرطبة؟ وتأكيداً لذلك نرى أن نظام القوافي في أغاني الصباح البروفانسية وهو ببببب - أحدا - يشبه قوافي الزجل أو هو متأثر بها مقلد لها، وكان نظام الزجل - بببببب - أحدا (١) ونرى

(١) اختلاف حروف الهجاء يدل على اختلاف القوافي التي في آخر الشطرات، وعدد الحروف وترتيبها يدل على عدد القوافي وترتيبها. غرّف ال (١) يشير إلى الاسماط التي تتكرر قافيتها في المقطوعات وال (ب) وال (ح) إلى قسم السط وهو الذي يسميه ابن سناء الملك في «دار الطراز»، بلبيت، والذي يحسن أن نسميه بالنصن اقتباساً عن ابن خلدون في مقدمته وابن بسام في الذخيرة. والسمط يسمى عند ابن سناء الملك بالقتل. (للترجيم)

أيضاً موضوعات شعر التروبادور وقواعده هي نفس موضوعات الشعر العربي وقواعده : إنهم يتغنون بعذاب الحب وآلامه ، ويتغنون بحاسن المرأة وما يثيره جسدها من فرح ولذة . لقد رفع شعراء التروبادور منزلة الحب فوق موثيق الزواج وعقوده . وإن قيل إنهم بذلك هونوا من شأن الأمانة الزوجية واتهموا الغيرة على العرض بأنها جلافة ، أمكن أن يدافع عنهم بأن إخلاصهم للدين على حقيقته ، أو قل — وهو الأرجح — إن إخلاصهم لتعاليم الفروسية في الحب التي سنها شعراء الأندلس هو الذي حملهم على هذا . إن الأخلاق في تلك كانت على جانب من التحرر والتساهل ، شكت منه الكنيسة حين قالت : « إن أكتانيا ليست إلا مباءة واسعة لللاثم والفجور » . ومعنى هذا أن العقاف الذي أرادت المسيحية أن تجعله الفضيلة العليا لم يكن محل رعاية دقيقة من الناس . حقا أن التروبادور أرغموا شيئاً فشيئاً على التوفيق بين الموضوعات والأخلاق التي أورثها لهم العالم العربي ، وبين إلحاح يزداد صرامة من كنيسة متجهمة عابسة . ولكنهم عرفوا مع ذلك كيف يحتفظون حتى في أغانيهم المهذبة ببعض الصفات الجسدية البريئة التي ترامت إليهم من خلف جبال البرانس .

وعلى الضد مما استطاع أن يكتبه عدد من النقاد العجيين لم يكن الشعر البروفانسي يتغنى بامرأة خيالية ، ولم يكن يجري وراء الأشياء المقدسة . ولكنه كان يتغنى في صراحة وفي غلظة أحياناً بلذة معانقة امرأة جميلة عارية تحيط صاحبها بذراعيها . واستطاع هذا الشعر ، استجابة لما فيه من إحساس جنسى ومن فجور أحياناً ، أن يعلن أن ليلة من ليالي الغرام تساوى في قيمتها الجنة المفقودة . ووجهة تعكس الأمور ، فبدلاً من أن يمجّد الشاعر عشيقته ويصف بياض صدرها أخذ يقدم المدائح « للعدراء » التي استقطرت ثديها العذب وقدمت لبنه الأبيض لراهب صغير كي يشفى من مرضه . فماذا حدث ؟

هذه هي القصة : كان من نتائج الاتصال بين العرب والبيئات البروفانسية أن ارتقى هذا القسم من فرنسا إلى مستوى ثقافي — حوالي سنة ١٢٠٠ — أصبحت به إمارة تولوز على رأس المالك التحضرّة الغنية الشاعرة المزهرة . ولم يكن هذا يرضى أتباع ملك قشتالة (وهو دومنيك دي جزمان الملقب بكذاب قشتالة) . فأشار هؤلاء على البابا إينوسنت الثالث فأعلن الجهاد الصليبي ضد هذه الأراضي الفرنسية التي عرف الناس فيها كيف يحيون (لقد أعلن من قبل ترويليان أن مملكة

السموات هي وطن الخصيان) . واستجابة لدعوة الأب المقدس (البابا) انقضى أهل الشمال على وطن التروبادور . فكم كان صرعى الحديد والنار والعذاب ؟ إنهم عشرات الألوف ، ويحتمل أن يكونوا قد بلغوا مائة ألف . إن أبناء سان دومينك أنجزوا ما بدأ به سيمون دى منتفورد . ومن سنة ١٢٠٩ إلى سنة ١٢٥٠ عمو كل آثار تلك الحضارة التي نضجت قبل الأوان ، والتي « كان يبدو أنها اختيرت لتقود أوروبا » . فلما تمت إبادة انتقل إلى إيطاليا شرف القيام بحركة النهضة بدلا من تولوز التي كان ينبغي أن تقوم بها . وصادر أساقفة الدومينك أناسيد الباطل أو أشعار التروبادور ، وألقوا إلى هؤلاء الشعراء الأمر بأن ينظموا التسايح الدينية بدلا من تلك التي قدمت طعمة للنيران . فمضى ذلك الشعر الغنائى الذى أنتجته بروفانس ، والذي تفتحت فيه عبقرتان : عبقرية العرب وعبقرية الفرنسيين وحل محله بغير حق شعر تعبدي ولد في أحضان الخوف . وهو الشعر الذى نريد من صاحبنا جوستاف كوهين أن يعتقد بأنه قد استنزف دماء القرون الوسطى (١) وأرهقها .

هذا هو كتاب الأستاذ بريفو كما يبدو لى . وتستطيع أن تحذر ما فيه من ثروة وغنى . ويضيف المؤلف إلى ذلك أن هذا الاقتران النادر بين ثقافتين ينبغي أن نرجع الفضل فيه إلى ما كان لدى الأمراء الأمويين من حرية وشك ديني ، وما كان عليه الخلفاء العباسيون الأوّل من ميل يقوى أو يضعف إلى مذهب المعتزلة . وفي الحق أن بروفانس أيضاً قد أصيبت بهذه المذاهب المكروهة ، وذلك قبل سنة ١٢٠٩ وهي السنة التي أعلن فيها الجهاد الصليبي ضد طائفة البيجوا *Albigois* وضد التروبادور أهل السوء والضلال . ويفضل العقل ، الذى يعرف كيف يستفيد مما هو أجنبي ، استطاع أهل بروفانس أن يفهموا العرب وأن ينتجوا شعر التروبادور . فهل نستطيع ، مسترشدين بهذا الماضى الحميد ، أن نتأخى عقولا وأن نتعاون لنهتف يوماً ما على شواطئ بجرنا الأبيض ، الذى هو ربيب الاسلام والغرب ، بشعر جديد يتجلى فيه فن جديد من فنون الحياة !

انجامبل

تقلها عن الفرنسية عبد العزيز محمد الاهواني

(١) انظر - والاولى ألا تنظر - كتاب جوستاف كوهين : « الازدهار الكبير

لقرون الوسطى » Gustave Cohen, *La grande clarté du Moyen-Age.*